عبد الرحمن منيف بين همّ الإبداع الرّوائي ومأساة السّياسة وأكذوبة التاريخ

الأستاذة بعيو نورة
جامعة – تيزي وزو-

وُلد عبد الرحمن منيف في مدينة عمان/الأردن عام 1933، من أب سعودي وأمّ عراقية. أنهى دراسته الثّانوية في مسقط رأسه، وبعدها التحق بكلية الحقوق في بغداد عام 1952.

ولأنّه رفض التّوقيع على حلف بغداد طُرد منها مع مجموعة أخرى من العرب العراقيين عام 1955، ليواصل بعد ذلك دراسته في جامعة القاهرة.

وفي عام 1958، غادر الوطن العربي مؤقّتا إلى يوغسلافيا حيث تابع الدّراسة في جامعة بلغراد. أنهى دراسته عام 1961 وحاز على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، تخصّص اقتصاديات النّفط/الأسعار والأسواق.

مارس عبد الرحمن منيف النّشاط السّياسي الحزبي زمنا، ثمّ أنهى علاقته بالسّياسة التّنظيمية عام 1962 وذلك بعد مؤتمر "حمص".

عمل في مجال النّفط في الشّركة السّورية للنّفط (دمشق)، شركة توزيع المحروقات، مكتب توزيع النّفط الخام. تزوّج في عام 1967 بزوجة لم تفارقه إلى الموت. وفي عام 1973 غادر سورية متوجّها إلى لبنان حيث عمل في مجلة "البلاغ"، وقد شرع في الكتابة وهو في الأربعين من عمره، ليُفاجئ القرّاء بأوّل رواية له: "الأشجار واغتيال مرزوق" (1973)، وقد اعتبرها البعض نزوة من رجل اقتصادي قد ملّ من لغة الأرقام ورائحة النّفط، ولكن اغتيال مرزوق كانت بداية لكلّ الاغتيالات اللاّحقة الّتي حدثت في الوطن العربي.

بعد ذلك، وفي سنة 1974، جاءت رواية "قصّة حبّ مجوسية"، وبها دخل الكاتب عالم الرومانسية الحالمة وتجوّل في أجواء العواطف الحميمية بلغة الحبّ والجنس

المسكوت عنهما. وفي سنة 1975 سافر إلى العراق وتولّى تحرير مجلة "النّفط والتنمية". في هذه الفترة يكتب منيف روايته "شرق المتوسط" مقتحما بذلك عالم السّجون والعنف ولغة التعذيب، وكأنّي به أراد أن يؤكّد اعتماد الفنّ للتعبير عن القُبح.

ويتبعها برواية "حين تركنا الجسر" سنة 1976 مستقرءا نقاط الضّعف والتراجع العربي في هزيمة 1967. في سنة 1977، ومقابل هذا، يعبّر عن حبّه للصّحراء وسرّها الغامض المليء بالخوف والتساؤلات في روايته "النهايات".

لقد كان منيف من أكثر النّاس/الكتّاب دعوة للحرية والعدالة والحوار والديمقراطية، كشف عن إشكالية الصّراع الحضاري بين الأنا والآخر، أو بالأحرى عن صورة الشّرق/الشّرقي بعين غربية في روايته "سباق المسافات الطويلة" سنة 1979.

ويبقى منيف في العراق حتّى عام 1981 ليغادرها إلى فرنسا/باريس. وبعد سنة تقريبا، يؤلّف رواية مشتركة مع الكاتب "جبرا إبراهيم جبرا" عنوانها "عالم بلا خرائط"، وقد تشبه تجربة طه حسين وتوفيق الحكيم عندما ألّفا "القصر المسحور".

وبين سنة 1984 وسنة 1989 يبدع عبد الرحمن منيف خماسيته/الملحمة "مدن الملح" وقد صدرت حسب التواريخ الآتية :

ج1	التـــيـــه	1984
ج2	الأخدود	1985
ج3	تقاسيم اللّيل والنهار	1989
ج4	المنبت	1989
ج5	بلدية الظلمات	1989[2]

تُرجمت هذه الخماسية كاملة إلى اللّغة الألمانية.

وقد صرّح عبد الرحمن منيف، في حوار له بالألمانية عن سبب اختياره لعنوان الخماسية "مدن الملح"، ذكر بعض الأسباب قائلا: « إنّها تعني تلك المدن الّتي نشأت في برهة من الزّمن بشكل غير منطقي واستثنائي، وأصبحت مثل بالونات يمكن أن تنفجر، أن تنتهي بمجرّد أن يلمسها شيء حاد. فالملح، بالرّغم من أهميته للحياة

الإنسانية، فإنّ أيّة زيادة في كميته أي عندما تزداد نسبة الملوحة تصبح الحياة غير قابلة للاستمرار. »[3]

فعلا، كانت المدن، الّتي نشأت في مجتمع لم يكن مهيّأ قبلاً لاستقبال ذلك الركام من الحديد والزجاج والإسمنت، مدن جديدة مكيّفة بالكهرباء، مصدرها الثّروة النفطية، الّتي لم يفكّر فيها الإنسان قطّ، إنّها ستنفذ في يوم ما، فماذا سيحدث لهؤلاء النّاس وهذه المدن ؟!

هذه هي الجملة أو معناها الّتي كان يختم بها عبد الرحمن منيف نهاية كلّ جزء من الخماسية، إنّها الصّرخة الّتي أطلقها منيف بعد التحرّر الشّامل الذي أحدثه النفط في المكان والبشر، وبعد إقرار منيف بأنّ النّفط إذا أسيء استغلاله هو نقمة ولعنة على المجتمعات الّتي رُزقت به، وهو همّ كبير، بل قاتل، يُثقل كاهل كلّ مثقّف مسؤول عن رسالة يجب أن يتركها أثرا للأجيال القادمة.

ينتقل إلى همّ آخر هو المكان/المدينة، معتمدا على دليل هام هو مجال السّيرة، لكن لا ليكتب عن سير المشاهير من العلماء والفلاسفة والحكّام، بل ليسجّل تاريخ/حياة مدينة اعتقد أنّها في طريقها إلى الاندثار والزوال، فكانت روايته "سيرة مدينة" سنة 1994 قصّة مدينة "عمّان" في الأربعينيات. حاول المؤلّف أن يتجاوز بعض مغالطات السجلّ التاريخي/القيد الذي أراد أن يُحرّر الحدث منه، فهي سيرة الأمس والحاضر والمستقبل، سيرة تتحدى المحلية والإقليمية وواضعي حدودها، سيرة تحفظ للأجيال القادمة صورة عمّان وهي تتحوّل من بلدة بسيطة، وادعة فيها كلّ مقوّمات الرّيف والبداوة، إلى مدينة اتّسعت جبالها وتلالها وسهولها حديثا أكثر، واتّسع مسرحها الرّوماني في القديم[*].

وفي سنة 1995، أي بعد مرور عشرين سنة تقريبا من صدور روايته "شرق التوسط" (1975)، تصدر له رواية "الآن... هنا أو شرق المتوسّط مرّة أخرى" حيث يُكرّر الكاتب فضحه لوضعية السّجناء ومآسيهم اليومية في الوطن العربي عموما، ليؤكّد تكاثر السّجون ولا إنسانية السجّانين من جهة، وغياب الحريات الفردية والجماعية وتغيّب شبه كلّي للفكر الديمقراطي السّليم الذي يحاور الآخر دون أن يكون

دعوة ودون أن يلغي "أناه". فنتأكّد أنّ الكاتب كان وما زال ناقما على هذه الظّواهر الّتي لم تتغيّر، بل ازدادت توسّعا وحدّة.

« وهكذا تلتقي "شرق المتوسط" و"الآن... هنا أو شرق المتوسّط مرّة أخرى" في رؤية مستقبلية متفائلة في النهاية، تعبران عنهما بنيتهما الفنية... وتحملان إلينا جميعا دعوة حارة جهيرة إلى المشاركة في تحمّل المسؤولية، أن تقول كذلك "لا"، أن تفعل شيئا.»(*)

ولأنّ الديمقراطية ليست حلاّ سحريا ولا هبة من السّماء، إنّها الوسط الذي يرسّخ العقلانية، عقلانية المثقّف والمجتمع، ويسمح بمناقشة مختلف القضايا، لبلوغ أفضل الحلول، وهي الصّيغة الّتي تخلق توازنا تفرضه الحاجة والضّرورة، هي حوار يستدعي عدم احتقار الأنا وإلغاء الآخر، هذا ما سيولّد الوعي الديمقراطي حسب مضمون الكتاب الذي ألّفه عبد الرحمن منيف سنة 1991 الموسوم "الديمقراطية أولا، الديمقراطية دائما"، ثمّ ولأنّ منيف عاش فترات متباينة في عدّة منافٍ، عايش المنفى عن كثب وبعمق، استطاع أن يدلي بآرائه ويكشف عن مواقفه المختلفة تجاه العديد من القضايا الفكرية والنقدية والسّياسية والتاريخية واللّغوية الحاسمة في المجتمع العربي الرّاهن عبر محاضرات ولقاءات وندوات كانت تجمعه بجماعة الدّارسين والطلاّب الجامعيين المهتمين بآفاق الرواية العربية المعاصرة، أمثال : حليم بركات، يمنى العيد، فيصل دراج، كمال عيد وغيرهم، وقد نشرها في عدّة مجالات : مجلة الحرية، مواقف بيروت والطريق... الخ. جمع كلّ هذا الكرّ من الآراء والمعارف في: "الكاتب والمنفى"، "هموم وآفاق الرّواية العربية"، 1992(4).

وفي سنة 1996، يهتم منيف بشخصية رسّام موهوب تربطه به علاقة مميّزة، فيتتبّع مسيرته الفنية، فما صلة الرّواية بالفنّ التشكيلي؟

قال منيف: لينين الذي لم يكتشف روسيا من خلال التقارير الحزبية والإحصائيات بالمقدار الكافي، اكتشفها من خلال "تولستوي"، وساعده تولستوي على هذا الاكتشاف دون ضجّة، دون ادّعاء أنّه يقدّم تقريرا للآخرين، وكان هذا الاكتشاف عاملا مساعدا في أن يكون لينين ثوريا حقيقيا.

ولينين ذاته ذهب إلى "كولن" في ألمانيا، لا ليدرس وضع الطبقة العاملة هناك، وإنّما ذهب لرؤية الكاتراتية، وهي إحدى إنجازات الفنّ المعماري العالمي، ليتأكّد من قدرة البشر وعبقريتهم على اجتراح المعجزات...

صلتي بالفنّ التشكيلي من أيام الطفولة، منذ أن بدأت أرقب الغيوم وهي تتصادم، وهي لا توافق على الانتظام أو الامتثال لشكل واحد.

منذ ذلك أصبح الشّكل وتغيّر اللّون سؤالا أساسيا.

ترافق ذلك مع تغيّر الطبيعة، انتقالا من فصل إلى آخر، ومن لون إلى ثانٍ، وأيضا اكتشاف البشر وهم يتغيّرون من موقع إلى موقع، من شكل إلى نقيضه... [5]

ويتابع مؤكّدا... لا أعتقد أنّ الرّوائي يمكن أن يكتب دون أن يكون مالكا لكمّ هائل من الصّور والأشكال والحالات، لون الوجه، شكل الجبهة أو الشفتين، حركة اليدين أثناء الصّمت أو الحديث، ما يرتسم على الوجه في حالة الانفعال أو السّخرية، كلّها صور يمكن أن تتحوّل إلى كلمات، إلى صور مكتوبة، ولذلك فإنّ الرّوائي معني بها إلى أقصى حدّ، لأنّها زوادته الحقيقة، أمّا إذا لجأ إلى الاقتراض أو الوهم فإنّه يفتقد الدقّة والحرارة، ويبدو وكأنّه يرسم على الماء أو على الهواء[6].

إنّ هذه العلاقة الحميمية بين الرّواية والفنون المختلفة، بين الرّوائي والرسّام، هي الّتي ولّدت مؤلّفا مشتركا بينهما بعنوان "مروان قصّاب باشي – رحلة الحياة والفنّ" سنة 1996.

مع العلم أنّ لمروان قصّاب الرسّام الفضل الكبير في وضع تصاميم العديد من مؤلّفات الكاتب عبد الرحمن منيف الروائية وغير الروائية ومنها، بحسب تاريخ صدورها :

- عروة الزمان الباهي 1997
- ثلاثية أرض السواد 1999
- بين الثقافة والسياسة 2000
- لوعة الغياب 2000

في هذا الكتاب الأخير حديث عن الموت/الصاعقة/الحتمية لكلّ إنسان، الكتاب مرثاة بالدرجة الأولى لكتّاب ونصوص ماضية وحاضرة بتوقيع أصحابها أمثال سعد الله ونوس، غائب طعمة فرمان، نزار قباني، جبرا إبراهيم جبرا وغيرهم.

- ذاكرة للمستقبل 2001

وهو بمثابة حوصلة عرض الكاتب من خلالها شهادات على محطات وأشخاص يعيشون في ذاكرته، ولا بدّ من تسجيل ذلك ليبقى شهادة ترسخ في أذهان الأجيال القادمة.

- رحلة ضوء 2001

تحدّث فيها عبد الرحمن منيف عن موضوعات مختلفة تهمّ النّقد الرّوائي بعامة، بل هي إشكالات في حدّ ذاتها، كلغة الحوار في الرّواية، والشّخصية الحكائية هل هي حياة أو قناع ؟! العلاقة بين التاريخ والرّواية... الخ.

أليس هو الذي كان دائما يحذر من استعارة أصابع الآخرين، مؤكّدا أنّه علينا أن نبدع بأصابعنا وأن نستفيد من إنجازات الرّواية في العالم، ولكن نستند إلى تراثنا وتاريخنا، كما ننظر بعين المسؤولية إلى حاضرنا[7].

- العراق، هوامش من التاريخ والمقاومة 2003

هو عبارة عن أوراق/هوامش كتبها منيف أثناء تحضيره لثلاثية "أرض السواد" الصّادرة سنة 1999، كما ذكرنا. إذن هذا الكتاب/المسوّدة كُتب قبلاً وصدر متأخّرا عن الثلاثية.

هوامش تروي مجموعة من الوقائع في تاريخ العراق، ولكنّه ليس رواية. ولعلّ منيف رأى أنّ التخفي وراء أقنعة الفنّ لم يعد كافيا، فكان هذا المؤلَّف الذي رصد فترة استيلاء بريطانيا على العراق عام 1917 ثمّ ثورة العراقيين عليها سنة 1920 ليُعاود احتلاله اليوم من جديد.

وبهذه المؤلّفات والرسومات الّتي تظهر على أغلفتها تبرز أهمية الفنانين في الإبداع وأهمية المشاركة بين قلم الكاتب وريشة الرسّام.

وقبل أن نختم الحديث عن مسيرة منيف الإبداعية وجهوده في مجالي الفكر والنّقد، نشير إلى أنّ تخصّصه الأول كان في مجال اقتصاديات النّفط حيث ألّف:

- البترول العربي مشاركة أو التأميم سنة 1957.
- تأميم البترول العربي سنة 1979[8].

هذا، وكان قبيل وفاته في جانفي 2004 قد حضّر مشروعين صدرا ضمن برنامج المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت لعام 2005 وهما:

رواية: أمّ النذور

وهو كتاب مشترك بين الكاتب وجرار: عبد الرحمن منيف والعراق.

*** منيف في ميزان النقد:**

نال عبد الرحمن منيف جائزة الرواية العربية بدار الأوبرا المصرية سنة 1998.

من حيث حجم الكتابات، يُعدّ ثاني روائي عربي بعد نجيب محفوظ.

* قال عنه الناقد السعودي "عبد الله الغذامي": « لقد جعل منيف من نصّه الروائي شهادات عن مرحلة من التغيير الشّديد سياسيا واجتماعيا ولم يجد حرجا في المزج بين السياسي والفني، وربّما آثر السياسة في كثير من الأحيان، ممّا جعل له خصوما عديدين، ولكنّه مع هذا ظلّ ضميرا جمعيا وأديبا وخير العطاء.»

* وقال عنه الروائي المصري "جمال الغيطاني": « حافظ منيف على نقاء المثقّف العربي في زمن شهدنا فيه الأعاجيب، وحافظ على ثوابت أساسية وقناعات لم تتبدّل، ليس من منطق الجمود، ولكن من منطلق تعبيرها عن موقف إنسانيّ وقومي عميق. »

* أمّا الناقد السّوري "نبيل سليمان" فقد قال: « إنّ هدف المشروع الرّوائي عند منيف هو: أن تكون الكتابة شهادة على القتلة وزمنهم، ولكن بالطريقة المجنونة. »

وتقول عنه زوجته "سعاد القوادري" الّتي عاش معها 36 عاما كاملة: «كان حبّنا مختلفا، عِشنا ورشة عمل من لقائنا حتّى الآن، وأنا مرتاحة، لأنّه مارس كلّ الأشياء الّتي يحبّها، وقد زاد من ألفتنا أنّنا كنّا متواضعين في شروط وطريقة حياتنا... »

رحل عن عمر يناهز السبعين عاما في منزله بدمشق، بعد صراع طويل مع مرضه المزمن (قصور في الكلى). لقد رحل بعد أن أسهم في تأسيس وعي عربي وروائي جديد، وانفتح على التاريخ العربي دون أن يُهمل مشكلات الواقع المعاصر، لقد كان مزيجا من الثائر والراهب. بقدر ما كان غاضبا وثائرا على الأوضاع الجائرة في عالمنا العربي، بقدر ما كان راهبا في محراب فنّه وإبداعه.

بعض مراجع الموضوع:

أ) الروايات:

- منيف عبد الرحمن: الآن.. هنا أو شرق المتوسط مرّة أخرى، المؤسّسة العربية للنشر والتوزيع، ط 5، 1997.

- منيف عبد الرحمن : سيرة مدينة، ط 1، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1994.

ب) مؤلّفات أخرى:

- حمود مجادة: علاقة النقد بالإبداع الأدبي، وزارة الثقافة، دمشق، 1997.

- منيف عبد الرحمن: الكاتب والمنفى، دار الفكر الجديد، بيروت، ط 1، 1992.

- منيف عبد الرحمن: بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000.

- منيف عبد الرحمن: رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2001

ج) المجلاّت:

- مجلة الجديد، ع 12، شتاء 1996، السنة الثالثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت.

- مجلة العربي، ع 544، محرم 1425 هـ - مارس 2004 م، وزارة الإعلام بدولة الكويت.

*- وردت الرّوايات بحسب تاريخ صدورها لأوّل مرّة.

2 - انظر مجلة الجديد، ع 12، شتاء 1996، السّنة الثالثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت، ص 38.

3 - مجلة العربي، العدد 544، محرم 1495 هـ - مارس 2004، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت للوطن العربي (كلمة العدد تأبين خاص بالروائي ع. منيف)

* - ظهر غلاف رواية "سيرة مدينة"، لعبد الرحمن منيف، ط 1، 1994.

* - كلمة محمود أمين العالم، ظهر غلاف رواية "الآن... هنا أو شرق المتوسط مرّة أخرى"، ط 5، 1997.

4 - عبـــد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، هموم وآفاق الرّواية العربية، دار الفكر الجديـــد، بيروت، ط 1، 1998، ص ص 181، 225، 249، 250، 255... الخ.

5 - عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000، ص ص 26 – 27.

6 - المرجع نفسه، ص 28.

7 - مقطع من صفحة ظهر غلاف "رحلة ضوء" لعبد الرحمن منيف، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2001.

8 - مجادة حمّود، علاقة النقد بالإبداع الأدبي، وزارة الثقافة، دمشق، 1997، ص 152.